الإسراء والمعراج

إن قراءة مشهد فكر الجماعات الإسلامية تجاه القضية الفلسطينية لا يمكن أن يتم أو أن يُعرف صوابه من خطئه إلا في ضوء السيرة النبوية الشريفة... وبالرجوع إلى السيرة نجد أن قضية الإسراء والمعراج تمثل ركيزة فكرية هامة.. لذلك لا بد من قراءة الإسراء والمعراج قراءة جديدة بعيداً عن حصْرها مكانياً وزمانياً في ظرف معين لا تتعداه، ولنبدأ من السيرة.

جاء في الفصول لابن كثير:

«وأسري برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجسده على الصحيح من قولي الصحابة والعلماء، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكباً البراق في صحبة جبريل عليه السلام، فنزل ثَمّ، وأمّ بالأنبياء ببيت المقدس فصلى بهم»[٢٧].

إن الإسراء ذكر في القرآن الكريم من مسجد إلى مسجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.﴾ (سورة الإسراء)،

وإن اختيار المسجد الأقصى ليكون مقابلاً للمسجد الحرام في هذه الرحلة أمر لا بد من تأمله جيداً وبدقة.

لقد أنزل الله الإسلام لكي يكون مهيمناً، ولجميع العالمين: ﴿هو

٢٧ ـ الفصول ص ١٠٦

الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[٢٨]، وكان اليهود يرون أن الإسلام مهما بلغ، فلن يبلغ أكثر من أن يتقاسم معهم الريادة الدينية على الأرض، فيكون هناك قطبان دينيان لا فضل لأحدهما على الآخر، ولا هيمنة، وكانوا يرون أن القطب الإسلامي قلبه المسجد الحرام، أما القطب اليهودي فمركزه المسجد الأقصى.. وأن محمداً لن يستطيع أبداً أن ينزع من أيديهم الريادة الدينية اليهودية التي مركزها المكاني الأقصى، ولأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ولأن الإسلام جاء مهيمناً ناسخاً لكون موسى أو عيسى لو كانا حيين لما وسعهما إلا الدخول فيه، فقد أراد الله تعالى إبطال الرأي اليهودي بإزاحة وعزل اليهود عن منصب قيادة الإنسانية الذي مركزه الديني في المسجد الأقصى، وجمع هذا المنصب مع منصب المسجد الحرام للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأمته، وبذلك يكون قد جمع لمحمد صلى الله عليه وسلم ـ مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما، وبذلك انتقلت القيادة من أمة إلى أمة..

ثم أن الدعوة المسيحية ذاتها، يعد ما حول المسجد الأقصى مهداً لها، لذلك فإن تكريم الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم، بمركز الأقصى لا يعد عزلاً لليهود فقط، بل للمسيحيين أيضاً عن الريادة الدينية للكون.

إن هذه الحقيقة التاريخية تجعلنا أمام حقيقة دينية هامة وهي أن تحويل المكان إلى معطى معنوي والذي هو صبغة الفكر الذي لا يقف عند الحدود الضيقة والجامدة، بل يحاول أن يعطيها أبعادها الحقيقية، سيضعنا

٢٨ ـ التوبة ٣٣

أمام معادلة هامة ذات طرفين. أحدهما المسجد الحرام، والثاني المسجد الأقصى..

فما هو المعنى الذي يمكن الحصول عليه من مكانين لهما معناهما وهما الحرام والأقصى؟

إن هذه الثنائية المكانية تتقاطع، أو تمتزج في شيء واحد وهو الإسلام، إذ لا جامع بين المكانيين إلا هذا. لذلك فإن تفكيك المسجدين عن بعضهما يعد قتلاً للقيمة، كما أن إبعاد جامع الإسلام بينهما سيكون تحويلاً للمسجدين إلى مجرد هيكلين ماديين لا معنى لهما.

إن هذا المعنى من إعطاء الريادة الدينية لمحمد صلى الله عليه وسلم ظهر أيضاً في قضية الصلاة بالأنبياء في المسجد الأقصى ليلة الإسراء، والصلاة بالأنبياء لها معنى لا يمكن المرور عليه دون فهم مغزاه، كما لا يمكن اعتبارها أمراً دون معنى.

إن الثابت في الشرع أنه لايؤم الرجلَ الرجلَ في بيته أو لنقل في مُلْكه، والدليل على أن الأقصى صار داخلاً تحت ريادة المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه إماماً، وكان يمكن أن يفهم عكس ذلك لو أن الذي صلى إماماً كان هو موسى أو عيسى عليهما السلام.

وحين نتحدث عن جمع مراكز الدعوة الإبراهيمية لمحمد صلى الله عليه وسلم فإن ذلك يأخذ مداه الأرضي في السماء، فالنبي صلى الله عليه وسلم في المعراج كان يمر في كل سماء على بعض إخوانه من الأنبياء، إلى أن مر على السماء السابعة، بمن؟ بإبراهيم عليه السلام.. ثم ارتقى بعد المرور بإبراهيم في السماء السابعة إلى سدرة المنتهى، وذلك دليل ريادة آخر.

ولئن ذهبنا نطبق هذا المعطى في واقع الصراع مع العدو الإسرائيلي اليوم فإننا سنلاحظ أن هناك تركيزاً فظيعاً على الجغرافيا ومنطق المكان، وهو تركيز يبعد المسجد الأقصى عن المسجد الحرام.

ومعلوم أن الأمة الإسلامية لا تهتم بقضية فلسطين كل هذا الاهتمام إلا لكون المسجد المسرى موجود فيها.. وبالتالي فهي تنظر إلى فلسطين من خلال المسجد الحرام، ومن خلال القرآن، وأما الذين ينظرون إلى المسجد الأقصى من خلال المسجد الأقصى ذاته لا من خلال المسجد الحرام، فأكثرهم حركات تحررية كتلك التي تظهر في أي بقعة من الأرض، كما حدث في فيتنام أو في الكونغو.. وهذه الحركات ليست لها صبغة إسلامية، فهي إما مسيحية أو غير ذلك.

والمؤسف أن بعض الجماعات الإسلامية الفلسطينية وغيرها تنظر إلى الأقصى على أنه قضية وطنية، وترى أن المعركة ضد إسرائيل يجب أن تكون في ظل المعطيات الدولية معركة وطنية لا أممية إسلامية، عن إبعاد الأقصى عن الارتباط بالحرام هو الذي أعطى النضال الفلسطيني صبغة وطنية يعمل الفلسطينيون ذاتهم على حمايتها، ولذلك فهم لا يقبلون بأي مسلم من غيرهم أن يقترب من دائرة تبنّي المقاومة ضد إسرائيل، اللهم إلا أن يكون دعْماً مالياً أو غير ذلك.

إن سكنى الفلسطينيين لما حول المسجد الأقصى لا يجعلهم أوصياء على المسجد بدلالته ومركزه الديني، ومحاولة الاستحواذ على ذلك معناه تجريد الأمة من حقها في مسجد لا يخضع للمعنى الجغرافي كأي بناء أو هيكل آخر موجود في هذه الدولة أو تلك، ولهذا التجريد أخطاره الفادحة، أكبرها التفكيك للريادة الإبراهيمية، إذ أن إبعاد الأقصى عن المسجد الحرام معناه تفكيك الوحدة الريادية الإبراهيمية التي

جمعها الله لرسوله بالمسجدين، والمساس بهذه الوحدة لا يسقط فقط باستعادة اليهود للأقصى كمركز، بل بسقوط المعنى الريادي الديني القيمي للأقصى على يد أي شخص أو جماعة لا تؤمن بالمعطى الديني للأقصى المرتبط بالمسجد الحرام.. إنه تفريق شبيه بالتفريق بين القرآن والسنة، فقد يأتي أقوام في منطقة جغرافية ليقولوا نحن لنا القرآن فقط، ويأتي غيرهم في مجال جغرافي آخر ليقولوا ونحن لنا السنة فقط. وهذا طبعاً لا يصحّ، رغم أن القرآن عظيم لوحده، ورغم أن السنة عظيمة بمفردها، لكن الإسلام هو القرآن والسنة معاً، فكذلك الرمز المكاني لريادة الأمة الإسلامية يقوم على ثنائية «الأقصى والمسجد الحرام»، وإخراج أحد هذين الرمزين عن المعادلة أمرٌ خطير جداً.

إن مواجهة العدو الإسرائيلي اليوم تستدعي سؤالاً هاماً وهو:

ما الذي يقصد استرجاعه: المسجد الأقصى، لإعادة الثنائية المكانية الرمزية، أم التراب الفلسطيني بما فيه الأقصى؟!!

والإجابة عن هذه الإشكالية هي التي تحدد إن كانت المقاومة مقاومة من أجل العقيدة أم من أجل التراب؟!!

أو لنقل من أجل استرداد الأقصى، أم من أجل استرداد التراب الفلسطيني، بما فيه الأقصى، للفلسطينيين؟!!

إن ملاحظة أداء الجماعات الإسلامية الفلسطينية لا تكاد تعطينا ولو ملمحاً أو إشارة بسيطة يمكن أن نرتكز عليها في اعتبار عملها ينطلق من وجهة النظر الإسلامية المعنوية التي أشرنا إليها، وهي استعادة الأقصى للمعادلة الإسلامية أصالة، وتبعاً لذلك تعود الأرض لأصحابها، بل إن هناك ملامح تجعلنا نقترب من قناعة اعتبار الجماعات الإسلامية مجرد

جماعات وطنية بالمعنى النضالي التحرري، وربما يكون ذلك مسايرة للتيار العام، الذي يتحول فيه الخطاب الإسلامي لأي جماعة من خطاب ينوب عن مجموع الأمة الإسلامية إلى خطاب ينوب عن الفلسطينيين، وتبقى المشكلة التي تواجهها هذه الجماعات أن الواقع لا يسلِّم لها بكونها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني في المقاومة المسلحة ولا في الأداء السياسي.

وبعكس ذلك فإن المتدينين اليهود من أحزاب وجمعيات وغيرها ترفع شعارها صريحاً، وبأنها تريد فلسطين أرضاً دينية تطبق فيها أحكام التوراة كأرض موعودة.. ولعل هذه المعاني هي التي يتوجب على المسلمين الاعتناء بها والانتباه إليها كونها مما ينبني عليها عمل، بدل الاهتمام الزائد بـ :هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربَّه ليلة المعراج أم لا؟!! وهي مسألة لم ينحسم فيها الخلاف، ولن ينحسم.